لماذا يتساقطون؟

عن أبي طيبة الجرجاني قال: قلنا لكرز بن وبرة:«ما الذي يبغضه البَرّ والفاجر؟»
قال:«العبد يكون من أهل الآخرة ثم يرجع إلى الدنيا».

من أسوأ الأخبار الّتي يسمعها المرء حَوْرُ فاضِلٍ بعد كَوْرِه، فإنّ من المحيّر كثيراً حدوث النكوص بعد خوض تجربة الإيمان، بل أحياناً بعد خوض تجربة الدعوة وربما الجهاد، الّذي هو أعمق نقطة في الإيمان نزولاً، ورأس سنام الإسلام صعوداً، فالأمر كما قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن أتباع النّبيّ ﷺ هل يرتد منهم أحد فقال له: لا، فقال هرقل: «**كذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب**»[1].

قال أبو سليمان الداراني:
"ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة إنما العجب ممن وجد لذتها ثم تركها كيف صبر عنها"

(١) أخرجه البخاري (ح٦).

النكوص والارتداد بكل مستوياته، ابتداء بالردة إلى الكفر بالله بعد الإسلام، أو الارتداد إلى حال العصيان بعد التوبة والصلاح والاستقامة، أو الارتداد إلى البدعة بعد السّنّة، كلّ هذه صُوِرٌ يأسف المرء لها ويخاف منها، ولهذا كان من دعاء النّبيّ ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[1].

وكان ﷺ دائما ما يستعيذ من الحَوْر بعد الكَوْر، أي من النقصان بعد الزيادة، وقيل: من فساد أمورنا بعد صلاحها، وقيل: من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنا منهم، وأصله من نقض العمامة بعد لفّها.

والحقيقة أنّ المتأمل لحالة النكوص يجب أن لا يغيب عنه جانب القَدَر ومبدأ الهداية والإضلال، فمن الأصول العلمية الثابتة في القرآن والسنّة أنّ الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدّثر:٣١].

فهذا الأصل مهم جداً في فهم جانب من جوانب الحالة، إذ كثيراً ما يكون الأمر خارجاً عن قدرة العبد، لكنّ ذلك ليس ظلماً له، لأنّ الله تعالى لا يضلّ شخصاً ويمنعه الهداية أو الثّبات

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣٠٢و٣١٥) والترمذي في الدعوات (ح٣٥٢٢) وحسّنه.

عليها إلاّ عقوبةً على كفره وزيغه عن الحق بعد أن تبيّن له، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥].

وقال عن قوم موسى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥] فتأمل كيف ربط منع الهداية بالفسق والزيغ عن الحق.

بل إنّ الله تعالى يمنع الهداية ويحرمها من يردّ أمر رسول الله ﷺ ويتنصّل منه استثقالاً له أو كراهية، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، قال الإمام أحمد في هذه الآية: «**عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي سفيان – أي الثوري – والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشّرك، لعله إذا ردّ بعض قوله، أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك**»[1]، يعني أنّه رغم ما أعطاهم الله من نعمة العلم وآلة البحث عن الحقيقة الشرعية إلاّ أنّهم يخالفون السنّة لرأي عالم من العلماء مهما كان، وهذا خاصّ لطلبة العلم.

١() الإبانة الكبرى لابن بطّة (ح٩٧).

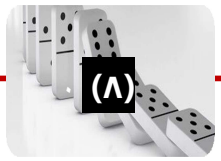

وهذا لا يمنع أن يكون الناكص صادقاً في إيمانه أمام نفسه، لكنّه يُعاقب لخبيئةٍ في قلبه أو معصية سلوكية، أو ظلم للناس !

جانب آخر

عن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان يقول:«إذا وصلوا إليه لم يرجعوا عنه أبداً، إنما رجع مَن رجع من الطريق»، يعني أنّ الله أكرم من أن يُسْلِمَ من وصل إليه، أي كمّل مقامات الإيمان والرغبة في الله والدار الآخرة.

وهذا صحيح، فنحن لا نرى من الناس إلاّ ظواهرهم والله تعالى يتولّى السرائر، وكم من رجل ظاهره الإيمان والتقوى وباطنه فسق وفجور، فالنكوص في هذه الحالة إنّما هو بحسب ما يظهر لنا، أو بحسب ما يظهر للشخص نفسه، فكثير منّا لا يغوص في أعماق نفسه، بل يكتفي بمظهرها، وإلاّ فنكوص المنافق وأصحاب بواطن السوء إنّما هو رجوع الظاهر وخضوعه لحكم الباطن، وهذا معنى ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ وفيه: «**إنّ الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (ح٢٨٩٨)، ومسلم (ح١١٢).

وهذا يفسر ما جاء في حديث ابن مسعود من أن الرجل «**يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار**»[1]، فاللّه تعالى أكرم من أن يصدّ من عمل الصالحات مؤمناً بقلبه طول حياته عن الجنة في آخر عمره، ولكنّها خبايا القلوب.

وهذا الجانب الّذي يتعلق بعلاقة العبد بخالقه ونصيبه منه لا أتناوله هنا ، وإنّما يهمني كثيراً الجانب الذي بأيدينا ويقع عليه في رأيي كثير من مسؤولية التساقط الّذي نشهده ونخافه على أنفسنا ، وهو ما تتناوله هذه المقالات التي سبق نشر بعضها في الشبكة العنكبوتية ، **أسال اللّه أن ينفع بها وأن يجعلها خالصة له.**

(١) أخرجه البخاري (ح٦٥٩٤)، ومسلم (ح٢٦٤٣).

قاصمة: بناء ضخم وأساس هش

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة:١٠٩].

صحّ عن النّبيّ ﷺ قوله: « **لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً**»[١]

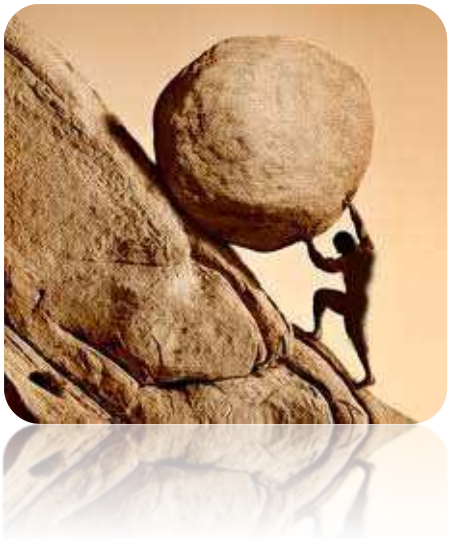

تأمّلت كثيراً في هذا الحديث، وتعليق النّبيّ ﷺ كثرة البكاء وقلة الضحك بالعلم، أي العلم بالله وما عند الله من ثواب وعقاب، ولا شكّ أنّه لا أحد يعلم عن الله وعمّا عند الله كما يعلمه ﷺ، ولهذا لمّا كان أكثر الخلق علماً به كان أكثرهم ديناً وخوفاً وتقوى.

١() البخاري (ح١٠٤٤) ومسلم (ح٩٠١).

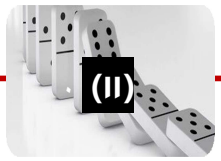

نعم، صدقتَ يارسول الله، نحن لا نعلم ما تعلم، ولهذا لن نعمل ما تعمل، ولن نطيق ما تطيق، ولن نستطيع ما تستطيع، لا نحن ولا من قبلنا ولا من بعدنا، ومن رحمة الله بنا أن حجب عنا كثيراً مما لا نطيق تحمل مسؤولية العلم به والالتزام بتكاليفه، ولهذا تحمّلها عنّا نبيّنا ﷺ، ورضي الله منّا بالقليل ونهانا أن نسأل عن أشياء إن تُبد لنا تسؤنا، هذا أمر لا يُختلف فيه.

تصديق هذا جاء في حديث أَبي هريرة قال: خرج النبي ﷺ على رهط من أصحابه، يضحكون ويتحدثون، فقال:«**والذي نفسي بيده! لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيراً**»، ثم انصرف وأبكى القوم، وأوحى الله عز وجل إليه: «**يا محمد! لِمَ تقنّط عبادي؟**» فرجع النبي ﷺ فقال: «**أبشِروا، وسدِّدُوا، وقارِبوا**»[1].

والّذي يهمّني منه هو تلك الإشارة اللطيفة، وذلك المعنى الرقيق الدقيق لعلاقة العلم بالحالة الإيمانية، فبين العلم بالله وبين الإيمان تناسبٌ طرديٌ كلما زاد هذا زاد ذاك ومع التذكير بأنّ كثرة البكاء والعويل وقلّة التلذذ بملاذ الدنيا ليست دليلاً على العلم بالله أو كثرته بالضرورة، لكن ليس هذا من همّي الآن، بل مرادي الاستفادة من هذه الإشارة تربوياً.

١() صحيح ابن حبان (ح١١٣).

أعني تربية النفس والغير انطلاقاً من العلم بالله، بمعنى أنّ التباكي والتظاهر بالمظاهر الإيمانية لا يجلب إيماناً ولا تقوى، بل الّذي يجلب الإيمان والتقوى الحقيقيين بعد منّة الله على العبد هو العلم بالله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

البدء بالتنشئة على العِلْم بالله وبثوابه وعقابه وأسمائه وصفاته، ومن ثمّ استزراع واستنبات الخوف والتقوى في النفوس من خلال تأثرها بذلك العلم، فحينئذ تكون التنشئة قوية لا تتأثر بالعوامل الخارجية إلاّ كما تحاتّ ورق الشجرة في الخريف لتعود مورقة خضراء في الربيع

لكن الداهية الدهياء أن يتمّ صبغ النفس بأصباغ التقوى والخوف وإلباسها ملابس الصالحين والتظاهر تكلفاً بالإيمان دون أن يكون لهذه المظاهر ولهذه الأصباغ أساسٌ في القلب، أعني عمق وسعة العلم بالله بما يناسب الظاهر، لأنّ ذلك أشبه ما يكون ببناء ضخم على أساس هش ما يلبث أن ينهار.

وقد جاء في القرآن والسنة مثلان لهذه الحال، الأوّل قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة:١٠٩].

ومثله قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج:١١].

والثاني من السنّة، وهو قوله ﷺ: «**مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تصرعها مرة وتعدلها حتى يأتيه أجله، ومثل المنافق مثل الأرزة المجذية التي لا يصيبها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة**»(١).

ففي كلا المثالين سبب ثبات المؤمن مع تعرضه للفتنة والبلاء هو **وجود الأصل وقوّته**، وسبب ذهاب المنافق وانكشافه هو **عدم الأصل والأساس أو ضعفه**.

وكثيراً ما تكون هذه الحالة مصنوعة

نحن نصنعها ونكوّنها بسبب غياب الفقه التربوي الصحيح، إذ نتعجّل النتائج من خلال سرعة بناء الظواهر والاهتمام بها على حساب الأساس العلمي الإيماني، وهذا

١() البخاري (ح٥٦٤٣) ومسلم (ح٢٨١٠).

أنتج لنا أفراداً يحاولون من الأعمال سواء على المستوى الشخصي أو العام فوق ما يتحمله أساسهم العلمي الإيماني فيحدث السقوط.

تأمّل معي مراعاة النّبيّ ﷺ هذا الجانب في قصّة أبي بكر، قال عمر: «أمرنا رسول الله – ﷺ – أن نتصدق ووافق ذلك مالاً عندي فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي فقال رسول الله – ﷺ –: **«ما أبقيت لأهلك ؟»** فقلت: مثله، قال وأتى أبو بكر بكل مال عنده فقال له رسول الله – ﷺ – **«ما أبقيت لأهلك ؟»** قال أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: «لا أسابقك إلى شيء أبداً»[١].

بينما لم يرض النّبيّ ﷺ بمثل هذا التصرف من غيره، قال العيني:«قوله: "لا أسابقك" أي: لا أقدر على مسابقتك أبدا، وإنما لم ينكر عليه السلام على أبي بكر إتيانه بجميع ما عنده لما علمه من حسن نيته، وقوة نفسه، ولم يخف عليه الفتنة، ولا أن يتكفّف الناس، كما خافها على الذي رد عليه الذهب، والذي رد عليه الثياب»[٢].

---

(١) أخرجه أبوداود (ح١٦٧٨) والترمذي (ح٣٦٧٥) وغيرهما، وصححه الحاكم في المستدرك (١/ ٤١٤) ووافقه الذهبي، وحسّنه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود.

٢() شرح أبي داود(٦/ ٤٣٢).

قال الحافظ: «قال الطبري وغيره قال الجمهور من تصدق بماله كله في صحة بدنه وعقله حيث لا دين عليه وكان صبورا على الإضاقة ولا عيال له أو له عيال يصبرون أيضا فهو جائز فإن فقد شيء من هذه الشروط كُرِه»[١].

١() الفتح (٣/ ٢٩٥).